



خطبة صلاة الجمعة 12 / 4 / 2019 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

### (منزلة الحياة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17]، جاء في تفسير الرازي: (إنه تمثيل)، والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة، فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: 80، 81]، قال المفسرون: المراد بالموتى في الآية موتى القلب.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه: مثل الحي والميت»، ولفظ مسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه: مثل الحي والميت» فجعل صلى الله عليه وسلم بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر.

## أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلة تلو الأخرى، تجتمع حيناً وتتابع حيناً آخر، ومن منازل السائرين منزلة سماها العلماء منزلة الحياة، وخطبة اليوم عنها. إذ تسري في السائر إلى الله تعالى روح جديدة تحيي فيه حيوات جديدة لا يعرفها من لم يسلك درب الله، فتجد السالك تسري في قلبه الحياة بالذكر، وتنبعث في عقله الحياة بالعلم، وتدب في جوارحه الحياة بالإرادة، وتتسلل إلى نفسه الحياة بالأخلاق الحسنة، ويتنسّم حياة الروح بالسرور بالله تعالى والأنس به.

وهذه الحيوانات الخمسة هي مادة خطبة اليوم.

### فأولها: حياة القلب بذكر الله وتدبر كتابه:

ففي القرآن الكريم سمى الله تعالى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح والعقول؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، فأخبر أنه روح تحصل به الحياة وأنه نور تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿يَنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنُذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

[النحل: 2]، فالوحي حياة الروح كما أنّ الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة.

والذكر للقلب - أيها الإخوة - مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء، وإنّ القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وإنّ جلاءها ذكر الله، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لكل شيء جلاء وإنّ جلاء القلوب ذكر الله تعالى. وحياة القلوب التي تموت بذكر الحي الذي لا يموت.

ورد الذكر واشتقاقاته في القرآن الكريم في ثنتين وستين ومئتي مرة، وورد الأمر بالذكر منها في ثمانية وأربعين مرة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]، ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلًا﴾ [المزمل: 8]، ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

قال أبو بكر الكتاني: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت يا رسول الله ادع الله لي ألا يميت قلبي فقال: قل في كل يوم أربعين مرة: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت.

فالزموا أيها الإخوة ذكر الله تعالى وتدبر كلامه؛ ليحيا القلب منكم وتنبعث الروح فيكم، إذ لا حياة للروح والقلب إلا بذلك، وإلا فهما في جملة الأموات ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122].

### وثانيها: حياة العقل بالعلم:

جاء في مدارج السالكين: (وهي كحياة الأرض بماء السماء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65]، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴿[الفرقان: 48، 49]، فإنك ترى الجاهل موتاً لأصحابه كما قيل:

وفي الجاهل قبل الموت موت لأهله  
وأرواحهم في وحشة من جسومهم  
فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت العقل والقلب والروح وإن كان حي البدن، فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان أنه قال لابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر).  
والمراد بالعلم كل علم نافع ترجو به الخير تقرباً إلى الله تعالى فإنه يحيي العقل والقلب معا.

### وثالثها: حياة الجوارح بالإرادة والهمة:

فعلو الهمة وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة، وأخس الناس حياة أخسهم همة وأضعفهم محبة وطلباً. كما قيل:

نهائك يا مغرور سهو وغفلة  
وتكدح فيما سوف تنكر غبه  
وليلك نوم والردى لك لازم  
كذلك في الدنيا تعيش البهائم  
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى  
كما غر بالذات في النوم حالم

وضعف الإرادة والطلب من ضعف حياة القلب، وكلما كان القلب أتم حياة كانت همته أعلى وإرادته ومحبته أقوى.

### ورابعها حياة النفس بالأخلاق الحسنة والصفات المحمودة:

فكلما كانت الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم.

في المدارج: (انظر إلى حياة حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم وحياة جواد شجاع بر عادل عفيف محسن، تجد الأول ميتاً بالنسبة إلى الثاني، ولهذا كان خلق الحياء مشتقاً من الحياة اسماً وحقيقة، فأكمل الناس حياة أكملهم حياء، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح فلا تستحي منها، فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة وضدها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان وحياة السخي أكمل من حياة البخيل وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة البليد، ولكمال أخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا أكمل الناس حياة، حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلي أجسامهم، أخرج أبو داود والنسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه قُبِضَ، وفيه النُّفُخَةُ، وفيه الصَّعْقَةُ، فأكثرُوا عليَّ من الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم مَعْرُوضَةٌ عليَّ، فقالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرضُ صلاتنا عليك وقد أُرِمتْ؟ - بليت - قال: إن الله حَرَّمَ على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» فالكمال أخلاق الأنبياء كملت حياتهم فلم تستطع الأرض إفناءهم، وقل مثل ذلك في الأمثل فالأمثل).

فاجهد أن تتخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ما استطعت وأن تتأدب بآدابه ما قدرت لتحيا حياة أهل الكمال وتنال بذلك خير النوال.

**وخامسها الأخير: حياة الروح بالسرور بالله تعالى والفرح به وقرة العين بحضرته جل جلاله:**

فمن حيي قلبه بالذكر والقرآن، وحيي عقله بالعلم، وحييت جوارحه بالإرادة والهمة، وحييت نفسه بالفضائل والأخلاق والكمالات، استولى عليه حب الله وبذل عمره في امثال أمره واجتناب نهيه، إلى أن يتحقق فيه الحديث القدسي الصحيح: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يسمع به، وبصرَهُ الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذ بي أعذته**» [البخاري]، فتحيا روحه بالله ولله وتقر عينه به وتسكن نفسه إليه ويطمئن قلبه به ويستأنس بقربه ويتنعم بحبه .

**أيها الإخوة:**

عما قريب يطالعنا هلال رمضان ونحن اليوم في مطلع شعبان، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد في شعبان ورمضان مالا يجتهد في سواهما، فمن أراد أن ينزل بمنزلة الحياة فليغنم هذه الأيام المباركات براً بالخلق واجتهاداً في طاعة الخالق؛ لننال بذلك الحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

اللهم أحیی قلوبنا بذكرك وأحیی عقولنا بعلمك وأحیی جوارحنا بالإقبال عليك وأحیی نفوسنا بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأحیی أرواحنا بالسرور بحضرتك وقرة العين بجنابك.

والحمد لله رب العالمين